اللسانيات المستقلة

من الدلالة التمثيلية الى الدلالة التواصلية

د. محمد رضا مبارك

كلية الاعلام - جامعة بغداد

1 - مقدمة :

لم تعد اللغة المنطوقة والمكتوبة موثوقا بـــها كل الثقـــة، في إيصال الدلالة الدقيقـــة وتحقـــيق التواصل، ولقد درست هذه المواضعة الفكرية (ولا نقول الحقيقة) منذ أمد بعيد، وكان الفلاسفة أول من اعتنوا بدلالة الكلمات ، وعلاقة اللغة بالفكر وحين اتسع نطاق التواصل مع اتساع الوســـائل الإعلامية، ظهر السؤال بقوة هذه المرة انطلاقا من فكرة مؤداها، ان اللغة في إطار الاتصال قد لا تســـهم في نقـــل المعرفة الحقيقية والأفكار المؤدية إلى بناء اتصال فعال، يعول عليه في التقدم الحضاري، وقد تقـــصر في نقل المجتمع إلى حـــالة من التميز الفكري، يعالج مواطن الخلل في البـــنية الفكرية التي تعاني منها المجتمعات . وحين يدرس الاتصال تدرس اللغة إلى جانبه ، ولقد توسع معنى اللغة، من الرموز اللفظية إلى الرموز غير اللفظية، ومنها الصورة ودلالاتها، فارتبطت الكلمات بدلالات جديدة، بـــعد أن فقـــدت علاقتها اللغوية المفترضة بمآلها التاريخي.

لقد درس الخلل في الاتصال انطلاقا من الخلل في اللغة ، وكان عصر النهضة الأوربي من أكثر العصور خصبا وغنى فيما يتعلق بدور اللغة في بناء نظام فكري معرفي (ابستمولوجي) جديد، وكانت المجتمعات الأوربية تستعد بعد أن أنجزت تقدما هائلا في المستوى العلمي إلى الانتقـــال إلى مرحـــلة جديدة، هي خلاصة لما قدم سابقا ، فالحراك الاجتماعي ألصاعد الى الأعلى، لابد أن يرافقـــه حـــراك لغوي، فلا يمكن إن يكون المجتمع متقدما وحديثا واللغة لما تزل جامدة على اطر قديمة فالحركة اللغوية تقتضي وقوفا طويلا عند استعمال الكلمة والكلمة في السياق ، والحمل الدلالي للكلمات، بعد ان تغيرت اطر التفكير بتغير التقدم العلمي، وضعفت العلاقات اللغوية التي كانت تربط اللغة بالماضي، لان اللغة لا تنقل أساليب في الكتابة ولا طرقا في التعامل مع الكلمات حسب، بـــل هي إلى جانب ذلك تنقـــل فكرا وفلسفه واراء في الكون والوجود والحقائق الفكرية المختلفة، ومن غير المعقول أن تظل اللغة بـــفكرها القديم ، والمجتمع يتطور تطورا سريعا نحو اتجاهات جديدة، وكان من الطبـــيعي أن يكون هناك تلاؤم

بين عصر النهضة الأوربي والتفكير في حقيقة اللغات. فاللغة ظاهرة اجتماعية تطورها يتناسب وتطور المجتمع وانتقاله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية لاحقة، على هذا النحو وجدنا هذه العناية البالغة باللغة، ولقد استحكمت أصولها بعد ذلك حين نقلت وسائل الإعلام الأفكار الى أجزاء واسعة من الأرض، مما دعا إلى التفكير مرة أخرى بجدوى الصياغات القديمة في وقت يسعى العصر إلى اختزال كل شئ، واختصاره، فالدلالات المائعة ماعادت مقبولة، والحاجة ماسة الان إلى دلالات خاصة ، تستثمر الوقت وتدفع باتجاه استعمال الاتصال في التقدم الاجتماعي، واللغة عنوان هذا التقدم.

الاستقلال في اللغة :

لعل من الطريف أن يردد المرء مقوله مثيرة للاهتمام ، يلهج بها الكثير منذ مطلع القرن العشرين وما قبله، وهي (الاستقلال) لتنتقل من السياسة حيث مكانها الأثير إلى اللغة ... وحين يكون السؤال حيويا وجادا عن ما هية الاستقلال وأين يقع في الفكر أم في الثقافة أم في الاقتصاد ، فان الاستقلال في اللغة يشير الى إبعادها عن الانغماس في مؤثراتها التاريخية والسياسية، وهو قريبا من الاتجاهات اللسانية البنيوية والتوليدية انه في الأصل مفهوم الكثير من رواد الحداثة ، يقول نيوماير "يستعمل مصطلح اللسانيات المستقلة ليعنى به اللسانيات التوليدية أساسا مع التنويعات البنيوية التي سبقتها(١) . ويمكن فهم اللسانيات المستقلة بانها ذات قيمة محايدة ويمكن ترجمتها الى **s~ä É J k ~íì ê~ä** وهذا يعني أقصى مايمكن أن نحصله من اللغة في حقيقتها الداخلية الصافية ، فهي عند ربطها بالواقع الاجتماعي ذات قيمة غير محايدة، هي منحازة اجتماعيا ومنحازة إيديولوجيا، ولولا ذلك لكانت اللغة أداة من أدوات التواصل الحقيقي الايجابي بشكل مطلق.

إن الطبيعة الاجتماعية للغة مفتوحة على اتجاهات كثيرة لاسيما في أنواع الاتصال الجماهيري، لقد تحولت اللغة في التاريخ الى أداة إيديولوجية تسهم مع أدوات أخرى في التسلط الفوقي ، وتبالغ في الناحية القيمية لتتحول الى ظل ثقيل للسياسة، كما هو الإعلام في استعمالاته الكثيرة، وقد تكون أداة من أدوات القمع الجمعي، واذابة الروح العامة في لون أو طيف من ألوان التعبير، المتعلقة بلون من ألوان الفكر أيضا ، وإذا كانت هذه المعاني لم ترد في ذهن (ماير) أو معظم اللغويين الحداثيين ، فإنها ترد بقوة في أذهان أمم لما تزل تعاني من عنف اللغة ومن اضطهاد الكلمات وما تحمله من شحنات عاطفية تحريضية، بل قد تكون اللغة مثيرة للريبة والشك، وهو ما يخالف ويقاطع ما يقوم به المحدثون للوصول الى علم لغة جديد عن طريق استعمال مصطلح اللسانيات المستقلة . وقد التقطنا محاولة ماير لنعادل بها واقعا جديدا هو مانعيشه اليوم . ونحن نطرح الأسئلة نفسها : هل حقا اللسانيات التوليدية والبنيوية مستقلة؟ وذات قيمة محايدة، غير أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل لابد أن تتطرق إلى المائز بين العلم والايديولجيا فهما متنافران ولا يمكن أن يلتقيا "تعنى كلمة (علم) معرفة لاصله لها بواقع معين ، أنتجتها

ممارسة جابهت هذا الواقع، ونعني بالايديولجيا وعيا منعكسا للواقع ، مثلا مقولة : إن الشـــمس مركز الكون، يمكن ان تدعى هذه الأيام نظرية إيديولوجية"٢. أي أن المقولة لم تعد تواجه الواقع، وهي لذلك لم تعد علمية، أصبحت جزءا من الواقع، والعلم دائما مواجه منقــلب متغير، أما الايدولوجيا فهي تثبــيت لمواضعات فكرية نظرية أو عملية وهي قد تقترب من العلم ، إلا أنها تظل مستقلة عنه ، بهذا المعنى فإن اللسانيات المستقلة ، بحث دائب عن التغيير، لذا كانت اللســانيات التوليدية هي الممثلة لها ، تلك التي اعتنى بها الفكر اللغوي الحديث لاسيما تشومسكي في طرحه مبدأي القدرة والكفاءة .

لكن تشومسكي يعارض اللسانيات المستقلة أو العلمية ، وهو يعارض المنهج الوصفي والمنهج الشكلي الذي يؤمن به عدد من علماء اللغة، لاسيما (بلوم فيلد) وهو قد جمع بين السياسة وأرائه في علم اللغة ، لكن اللغويين المعاصرين يأخذون عليه انه شوه أراء دوسوسير وأســاء تفســيرها ، لذا بقــيت النظرية الوصفية ثابتة في كتابات اللغويين المحدثين، وقد قــللوا كثيرا من أراء تشومســكي التوليدية وسعيه إلى "إقامة نظرية للغة تصدر عن اتجاه عقلي (mentalist) وقد بدأ هذا الاتجاه خافتا أول الأمر في كتاباته الأولى ثم ما لبث إن قوي وصار أساس المنهج كله، وهذه النظرية العقلية تبــنى في جوهرها على ما يمكن تسميته (بلا نهائية) اللغة ، انه يرى أن كل لغة تتكون من مجموعة محدودة من الأصوات ومن مجموعة محدودة من الرموز الكتابية، ومع ذلك أنها تنتج وتولد جملا لا نهاية لها"٣.

الحديث عن استقلالية اللغة يقع خارج الاطار الذي اوجده ودافع عنه تشومسكي، اذ ان الكثيرين في العقود الاخيرة عادوا الى (سوسير) من جديد، وتوصلوا الى ان الكثير من الذين عارضوه وخالفوه وقدموا ملاحظات مهمة عن ارائه ، لم يقرأوه بشكل دقيق، وربما قصدوا تشويه ارائه..٤. ما يعنينا من ذلك كله، ان اللسانيات المستقلة هي تفريع عن دوسوسير، وبناء مفهومي على ارائه، لان دراســة اللغة دراسة وصفية ، تقريب للغة من العلمية ، ومن ثم فانها مستقلة حين تكون كذلك ((ان دراســة اللغة في حال استقرارها هو مايعرف الان بالمنهج الوصفي ، وقد اشــار دوســوير الى انه يشبــه مايجري في دراسة النبات مثلا ، حين تقدم شريحة مقطوعة قطعا افقيا واخرى مقطوعة قطعا رأسيا ، إن المقــطع الافقي هو الذي يكشف ، لانه يقفنا على مرحلة خاصة ، وعلى حالة محدودة ، ذلك ان هذا القطع يشــمل مجموع الخلايا والحلقات والالياف التي يمكن مقارنتها والتي يسهل تمييز كل واحدة منها عن الاخرى بسبب وضوح مكانها على السطح ، وفحص هذه المادة لايقتضينا ان نعرف شيئا عن تاريخ مانراه))٥.

ويمكن مما يقوله دوسوسير ، تحديد العلاقات بين الكلمات والعلاقــات بــين الجمل ، أي كيفية استعمال الجمل في الوقت الراهن ، وهذا المنهج الوصفي يفضي الى ((ان نحدد المكان وان نحــدد كل جزء ونصفه ، بربطه بما يجاوره من اجزاء. وهكذا اللغة ، ان صاحبها لا يحتاج ان يعرف شــيئا عن اشتقاق كلمة او تاريخها كي يستعملها ، ومن ثم فان تناول اللغة ينبغي ان يكون على هذا الاســاس . أي على القطع الافقي كما يقول، لان القطع الرأسي الذي يمثل الدراسة التاريخية، لايقدم لنا صورة متكاملة

على السطح، بل يؤدي الى صور مختلفة، حيث نرى خطوطا تتفرع وقد تختفي ومن ثم يضيع التحـــديد وتصعب المقابلة))٦. وعلى هذا فان مفهوم الاستقـــلال في اللغة ، وجد في النظرية الوصفية، وتواصل مع المنهج البنيوي والمنهج السيميائي، وظهرت الان دراسات لغوية تدرس علاقة اللغة بالايديولوجيا. أي ان اللغة لا تدرس بصفتها علاقات مترابطة، بـــل ينظر اليها على انها اما تاريخ او افكار معاصرة مرتبطة اصلا به. وعند ذلك تكف اللغة عن ان تكون علمية ودقيقة، كي يمكن ان تشتغل، خارج القـــيم الاتصالية والدلالية التي وجدت من اجلها.

التاريخ وعلامات التواصل :

يصنف بعض الدارسين اللغة على ثلاثة مستويات ، المستوى التذوقي الفني الجمالي ويستعمل في الادب والفن والمستوى الثاني المستوى العلمي النظري التجريدي ويستعمل في العلوم ، المســـتوى الثالث هو المستوى العملي، ويستعمل في الصحافة والاعلام بشكل عام٧، يكاد يتفق بعض الدارســـين على ان المستويات الثلاثة السابقة يمكن ان تكون قياسا موثوقا به ، يقاس على اساسه تقدم المجتمعات او تراجعها ، فاذا تقاربت المستويات الثلاثة تقدم المجتمع ، وان تبـــاعدت دل ذلك على تخلف المجتمع.. وربما انهياره.. وهذا المقياس قد لا يكون دقيقا بله صحيحا .. لانه يأخذ المستويات الثلاثة بمقياس واحد ، غير ان الواقعي والمنطقـــي هو اخراج اللغة العلمية التي تســـتعمل لوصف وتعريف المصطلحـــات العلمية وشرحها من هذا التقسيم الثلاثي ، لانها الابعد عن التأثير السياسي والايديولوجي ، ونسبة التغير فيها مرتبطه بتطور العلوم ، وتغير مصطلحاتها، وان الشبـــكة الاجتماعية لا اثر لها في هذا التطور.. لاسيما عندما تكون متعلقة اساسا بالعلوم الصرفة.. لذا من الافضل استبعاد هذا المستوى ، وباستبـــعاده نقف على مستويين مهمين للغة ، يمكن ان نجري الفحص عليهما من ناحـــية الحـــياد الايديولوجي، او الاستقلال الدلالي، وكلا الاصطلاحين اوجدناهما عن طريق العلاقة بين اللغة والايدولوجيا التي يقـــف المجتمع قريبا منهما بل ملتحما بهما.

لقد اهملنا قصدا ، اللغة المســـتعملة أي اللغة العامية ولم نضع لها درجة ما ضمن المســـتويات، فهي ليست موضع دراستنا وملاحظتنا، لانها اكثر قربا من الدراســـات الاجتماعية الانثروبـــولوجية.. ويلاحظ في هذا السياق ان العامية هي الاكثر انفتاحا على التغيير وهي الاكثر عرضة له ، مما يدل على ان نسيج العامية هو نسيج اقل ديمومة وقوة ، ويمكن اختراقه بسهولة.. ولهذا نلاحظ التغيير الشامل في المصطلحات ودخول كلمات وصياغات غريبة في نسيج العامية ، تدخل اليها بسهولة، إذ اصبح التغير والتبدل سمة من سمات العامية.. فهي ترتفع عن القواعد، وتسمح لنفسها التجول بحرية داخل المصطلح ، واحيانا تتطلع الى الحلول مكان الفصيحة، وقد يجد بـــعض منظري اللغة والمؤمنين بـــتطورها، ان العامية هي الاكثر قدرة على التعبير والاكثر حرية والاكثر انفلاتا من القيود ، مما هيأ لبعض المثقـــفين

التخاطب بها وجعلها لغة الكتابة، لكن هذا وهم خادع ، والعامية منفتحة بالقدر الذي تسهم في تسفيه الدلالة ، كما ان انفلاتها من أي ضابط لساني او قواعدي او عرفي يجعلها عرضة للتغير الشامل، عندها تكف عن ان تكون لغة ذات ايحاء واسلوب جمالي..

لعل موضوع التاريخ وعلاقتة بعلامات التواصل قد اشبع نقاشا في الاوساط الثقافية، لكن مايثير الاهتمام هو ان التاريخ يمنح قداسة للغة، يبعدها عن ان تكون عاملا من عوامل التواصل الاجتماعي بالشكل الذي يؤثر في الوسط الاجتماعي تأثيرا ايجابيا فعالا، أي ربط اللغة بالتقدم الاجتماعي، والقداسة قرينة الثبات لان المقدس ثابت ازل لايمكن زحزحته من منزلته الزمانية والمكانية، اما اللغة فهي متحركة لانها مرتبطة بحركة المجتمع ، وظهرت اصوات قوية تدعو الى تضييق مساحة المقدس في حياتنا ومنها اللغة "ان كل لغة تظهر تاريخية المعنى، انسانية المضمون، هي تلك التي تنتظر توسيع معناها وترقيتها باستمرار، انقول اذن ان كل ما يعلن عن تمامية لغة معينة او كمالها وكل ما يؤكد هذة الوضعية انما يتحدث عن (يوتوبيا اللغة)، ان القول بيوتوبيا اللغة يعادل على الصعيد التاريخي القول (اللغة مومياء) اليس من حقنا القول لاتعرف الشعوب بلغاتها بل تعرف اللغات بشعوبها"٨.

على هذا فان المستوى الافقي للغة يختلف اختلافا بينا عن المستوى العمودي (التاريخي) وان الاهتمام بذلك سيوفر فرصة للتعامل العلمي الواقعي معها ، فلقد نظرنا اليها وكأنها كائن مستقل خارج تفكيرنا ، وهي ليست جزءا منه ، وبدلا من ان نشخص انفسنا شخصنا اللغة وجعلناها في المرتبة العليا لايمكن الوصول اليها الا بالتوسل والتودد ، فدخلنا في صميم الانفصال الفكري عن اللغة ، نحن نفكر باللغة قبل ان نفكر بالمعاني وتطورها وتوليدها من جديد، ونتأمل الكلمات قبل ان نعنى بما تعنيه هذه الكلمات، ولطالما سقطنا شعرا او نثرا باللفظية الطاغية ، فتحولت الكلمات الى رموز مبهمة عاطفية فارغة من الدلالة الا من الدلالة القدسية التي وضعناها لها ، ولعل عبد القاهر الجرجاني اول من شخص المشكلة اللغوية عند العرب في نظرية النظم حين ربط بين اللغة والفكر "ولعل السر يكمن في نظرة عبد القاهر الى العنصر الذي ينبغي ان يفرق به بين النص الادبي وغيره. وعنده ان هذا العنصر هو الفكر بالدرجة الاولى، او فلنقل طريقة بناء الفكرة وترتيبها واخراجها، وعبد القاهر هنا يجعل البلاغة صناعة الفكر العميق، لاصناعة الذي يعرف بعض القشور اللفظية، والبلاغة التي ترجع الى الفكر اكثر من اللفظ تجعل لغتها عالمية ، يستمتع بها اصحاب اللغات الاخرى حين تترجم اليهم".٩

ولم يشدد الجرجاني على ذلك الا حين وجد ان انفصالا ما بين الاثنين، توجده الصياغات اللفظية والمماحكات التعبيرية، ولاسيما الشعرية منها، فلقد ولدت القافية في الشعر العربي انفصالا ما بين اللغة وما تعنيه، حين لجأ اغلب الشعراء الى وضع كلمات تتسق مع القافية لا مع المعنى وكان هذا اول انفصال بين اللغة والفكر حدث منذ اقدم العصور ، وظل قائما . لقد غابت البحوث الجادة عن تطوير اللغة نحوا ودلالة وصرفا واصواتا ، حتى صرنا نجتر ما الفناه بلا رغبة في تجديد المفردات والجمل او

تغيير في عناصر الجملة ، وغابت اللغة استعمالا وحضرت قواعد ومواضعات افقدتها القدرة على مواكبة التغيير في الفكر، ولذا كان البحث دائبا عن كاتب اجتماعي، والمقصود هو كاتب تواصلي، يستطيع ان يحدث انقلابا في اطر التفكير، خارج المسلمات التاريخية الماضوية، التي لم تعد الا ستارا يقدم ما يتوهم انه الصياغة الدقيقة للفكر. ولن يكون كاتبا اجتماعيا الا حين يبعد قدر ما يمكن الايديولوجيا عن اللغة ، ولغتنا مليئة بالايديولوجيا منذ العصر الجاهلي، فشعر المديح شعر حزبي تسلطي قبلي، لانه يفرض عن طريق الكلمات نوعا من السلطة على القارئ، وهي سلطة لغوية، وبمعنى اخر سلطه ايديولوجية، وتواصل هذا المنزع في العصور اللاحقة ، بل اشتد ضراوة وقوة، وابتعد معظم الكتاب عن ان يكونوا كتابا اجتماعيين ، وادخلوا الايديولوجيا السياسية في عمق التعبير اللغوي فما عاد التفريق بينهما ممكنا "ومن الصعب اليوم العثور على كاتب عربي يمكن اعتبارة مجتمعيا، ومثل هذا الوضع ليس الكاتب مسؤولا عنه، بل هناك وضعية متشظية (....) فالتصور العلمي للعالم حل محلة التصور الطائفي والمذهبي الضعيف والفئوي.."١٠.

لقد امنا ان تفكير القدماء هو افضل من تفكيرنا ، وان حراكهم الاجتماعي افضل من حراكنا ، لهذا استعرنا استعمالاتهم اللغوية ، واخذنا نصلح لغتنا اعتمادا على تلك الاستعمالات لكي تواكب ما استعملوه وما قدموه. ان لغتهم كانت انعكاسا لفكرهم السابق، وقد انقضى ومضت عليه دهور ، وان استعارة استعمالاتهم السابقة دليل على وقوفنا بلا حركة وبلا فكر، لان اطر التفكير المعاصر اختلفت تماما عن اطر القدماء، ولابد لهذا التفكير ان ينسجم مع اطر لغوية جديدة ، لا تتبع قسرا ما جاء في استعمالتهم ، ونجبر استعمالاتنا لكي تتوافق معه، سواء تعلق الامر بمعجم المفردات او معجم المعاني، وهذا يعني غياب الرؤية الفكرية عن عصرنا ومستلزماته واننا نستعير تفكير القدماء، ونحيي ما مات وانقضى من استعمالاتهم، ولهذا ابتعدت لغتنا عن الواقع، وارتبطت بواقع القدماء، وقد يكون صحيحا القول ان معظم المثقفين العرب لا يعبرون عن الواقع في خطاباتهم : وهم يستعيرون تفكير القدماء "لقد بقيت اللغة في نتاجات هؤلاء بعيدة عن تمثيل واقعها ، لان الواقع المعاش لم يجر تحريكة وتطويره ، ان مجتمعا متخلفا لا يساعد على بلورة لغة متطورة، بل على تقديم لغة مخلخلة في الصميم"١١.

ان تشخيص هذه المعضلة اللغوية الكبيرة ، كان يجد له صدى في طرح اسئلة كبيرة ومحرجة احيانا عن لغتنا ، وما الذي ينبغي فعله ، بعد ان جمدت الدراسات الاكاديمية عندنا في اتجاه واحد وبدا انها تتناسب مع الصحوة الايديولوجية التي حملت بذور الانغماس في الماضي منذ بداية الثمانينات في القرن الماضي .اذ توقف البحث عن فحص اللغة ودراسة قدرتها على التعبير وعلى التغيير، واستبدل ذلك بتعميق الاتصال بين الايديولوجيا واللغة في بحوث نحوية ودلالية محسومة النتائج سلفا، لانها تدرس النصوص المقدسة، ولايمكن لها الا ان تكون ذات منحى واحد. وانتقل المعنيون يصوبون اللغة على وفق الاستعمال القديم ، وقد ظهر ان العالم قد مضى اشواطا بعيدة في التقدم العلمي وتغير طرق

التفكير ، والمسافة اصبحت شاسعه بين تفكيرين ، احدهما غربي وعالمي ينزع الى التحول والتغير في كل شئ ومنها اللغة، والاخر عربي هدفه الثبـــات والجمود وتعميق الصلات بـــين اللغة والايديولوجيا. وحين طلع (دوسوسير) بنظريته الوصفية كنا كالذي ينظر القمر يبزغ من جديد بعدما غيبـــته عصور الظلام والغيوم السوداء.

لقد قبلنا التحدي (السوسيري) ان صحت التسمية ومضينا نبحـــث عن مقاربـــه ما بـــين نظرية العلاقات البنيوية داخل النص ومحاولات عبـــد القـــاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز) ، حـــتى كأننا اكتشفنا الرجل بعدما فاه به العصر منذ بدايات القرن الماضي ، ووجدنا ان خلاصة جديدة لما تزل تثير حماسة العالم ، اساسها علاقة اللغة بالايديولوجيا .

الارادة والمؤسسة :

يندرج في هذا السياق ماحدث من تطور بعد ذلك ، انطلاقا من القـــراءات المتعددة للنصوص ، ومن المواضعات الفكرية التي اثبتها (جون تايلوت) في التمييز بين الارادة والمؤسسة ، وهي منطلقة اساسا من اللغة الوصف لا اللغة المعيار .وكان هذا تنويعا على ماجاءت به هذه الانعطافة المهمة في تاريخ اللسانيات ويطرح التصور على الشكل الاتي "" تحويل الخطاب حول اللغة metalinguistic discourse)) **من صيغة معيارية توجيهية الى صيغة العلم الوصفي اعني : استبادل مفهوم للدلالة مستمد من الاختيار والارادة** voluntaristic **بأخر مستمد من المؤسسة ، وهذا يتوقف على التخلي عن وجهة النظر القائلة : ان الصله بـــين كلمة وما تدل عليه انما تصاغ بواســـطة ارادة الافراد الذين يتلفظون بتلك الكلمة، وذلك لصالح وجهة نظر اخرى ترى ان تلك الصلة موجودة بصورة مستقلة عن ارادة المتكلمين الافراد ""١٢. وهذا ان نقلناه الى الواقع ، فان التساؤل يظل قائما ، هل المؤسسة فعلا هي التي تتدخل في ضبط العلاقة بـــين اللغة والمعنى ، والافراد لاعلاقـــة لهم بـــذلك. ان هذا يعني ان المؤسسة سلطة عليا فوقية تفرض رؤيتها على الافراد دون وعي، او بلا اكتراث لهذا الوعي ان وجد "ان اهم خطوات تحويل اللسانيات التجريبـــية من الصيغة المعيارية الى الصيغة الوصفية هو التخلي البطئ لممارسة معاملة الدلالة ، بوصفها وجها من وجوه السلوك الارادي ، لصالح ممارســـة اخرى تعاملها على انها مستقلة عن ارادة الفاعلين اللسانيين "١٣ .**

ان القول السابق من (تاليوت) يشير بصورة واضحـــة الى قـــيمة التواصل واهميته في اللغة ، فالفرق واضح بين الفعل الارادي والفعل غير الارادي ، فاذا كانت اللغة مستقلة عن ارادة الفاعلين فهذا يعني انها مرتبطة ارتباطا مباشرا بالايديولوجيا ، سواء كانت سياسية او دينية او مذهبية، أي لا مناص للافراد من ان تفرض عليهم المؤسسة رؤية معينة ، وهي من ناحية ثانية قـــد تلغي الايديولوجيا، أي ان الافراد في ما يتعلق بالكلمات وما ترمز اليه ، يستعملون اللغة خارج مايؤمنون به ، ولعل هذا هو الذي

تذهب اليه اللسانيات الوصفية، أي ابـــعاد اللغة عن الايديولوجيا، عندما تتحـــكم المؤسســـة بـــالدلالة والمعنى، انطلاقا من واقع غربي ليبرالي ، تكون المؤسسة فيه قد توسعت افاقها، أي ان المؤسســـة في النظام الغربي هي استجابة للحداثة التي تذر قرنها في كل شـــئ، وبـــما ان اللغة هي عنوان التغيير فمن الطبيعي ان تصبـــح المؤسســـة ممثلة له، خاصة وان الهدف هو تحقـــيق غرض اللغة وهو الاتصال ، فالكلمات يجب " ان تثير في السامع الفكرة نفسها تماما التي ترمز لها في عقل المتكلم، وبدون هذا سيملأ الرجال رؤوس بعضهم بعضا بالضجة والاصوات، ولكنها لن تنقل بـــذلك فكرهم وتطرح افكارهم امام بعضهم بعضا، وهو الهدف النهائي من الخطاب واللغة "١٤. المقتبس السابق يشير الى رأي قديم نسبيا قاله جون لوك في القرن السابع عشر، وناقش فيه ايضا امكان ان نحسن تحقـــيق هدف اللغة، بتفحـــص السبب في اننا نفشل عموما ويقترح علاجات، يمكن ان تساعدنا في نجاحات اعظم١٥ .

واذ شغلت قضية الفشل في التوصيل (جون لوك) فان اللسانيين المحدثين واصلوا البحـــث في كيفية ايجاد السبل الكفيلة لتحقيق تواصل اكثر جدوى من ذي قبل ، اذ ان كثيرا من انواع الخطاب تفشل في ايصال الدلالة، ولعل اولى المشكلات في ذلك ، هو مايطلق عليه بالمطابقـــة المزدوجة بقســـميها: المطابقـــة التمثيلية والمطابقـــة الاتصالية " فالعقـــيدة اللســـانية التي يجادل ضدها لوك هي الافتراض الموروث بوجود مطابقة مزدوجة في الدلالة، مطابقة تمثيلية للافكار مع الاشياء بما هي افكار تعبر عن تلك الاشياء، ومطابقة اخرى اتصالية للافكار معبر عنها بواسطة استعمال شخص واحـــد للكلمات مع تلك المعبر عنها بواسطة استعمال فرد اخر للكلمات نفسها "١٦. التطابق يحدث خارج السياق الثقـــافي والتعليمي للغة أي في سياقات تستعمل اللغة في الاتجاه المعرفي او الفلســـفي ، وهناك تطابـــق من نوع اخر بين اللغة والايديولوجيا، وهو مايحدث بعيدا عن عصر لوك ، فقد كان يتحدث عن عصر النهضة ، والتجريبية الطاغية في الفكر الاوربي ، في ذلك الوقـــت وكذلك التجريبـــية في اللغة... اما خارج هذا الاطار فيمكن ان تتطابق الدلالتان ولكن بأثر سلبي، حين تحـــمل اللغة بشحـــن من الدلالات التاريخية والدينية والسياسية، وبروز مشتركات في العقل الفردي والعقل الجمعي، حين ذلك يحدث التطابق غير المحمود ان صحت التسمية أي خارج الفضاء الاتصالي الذي هو فضاء ايجابي ثقافي وحضاري.

هذا التطابق وان بدا خارج السياق العلمي للغة الا انه في حقيقته تطابق وهمي فالمســـتعمل للغة يتبنى الصياغات التي تسمح له باستعمال اقصى مايمكن من توتر ليعادل به ذهنا فطريا، أي ان الكلمات تشحن برموز واسماء وكذلك باساطير تاريخية لتحقيق الميزة التواصلية بـــاكثر مايمكن من قـــوة ومن تأثير ، ففي انواع الشحن الايديولوجي الديني والمذهبي يحدث نوع ما من انواع التطابق. قد يؤدي الى حالات غير سوية بل يؤدي الى حالات عنف لايمكن التحكم بها، لاشك في ان الدلالاتين قد تطابقـــتا في الذهن الفردي وقد تتطابقان في الذهن الجماعي ايضا، يضاف الى ذلك ميزات اخرى، تعتمد على تكرار العبارات والاسماء التاريخية والاسماء المقدسة، مما يدفع الى الالتحام التام بين الدلالاتين. حينها تكف

اللغة عن ان تكون صانعه للحضارة او مقومة للعناصر الثقافية كما كان يريدها فلاسفة عصر النهضة الاوربي. وتصبح مقوله لوك منقلبه من اساسها، فقد استثمر العقل الجمعي بواسطة اللغة، والايديولوجيا عنوان لهذا الاستثمار. في هذه المطابقة يكف العقل الجمعي والفردي عن التفسير والتأويل ، وتلغى مستويات الفهم في اطار الشرح وتعدد الدلالات، وتصبح الكلمات واقعا، والحقيقة اللغوية حقيقة مطلقة، هي والواقع سواء، وحين يتحد الاثنان في شئ واحد يكف العقل عن التفكير، وتصبح اللغة هي المفكرة أي تصبح الكلمات هي العقل ، وتصطبغ اللغة بلون واحد قد يكون لون (الدم) هو اللون الاوسع والاكثر طغيانا وهو الذي يدفع نحو الاتجاهات العدمية والتدميرية التي يشهدها عصرنا الراهن في مدننا المعاصرة.

حين نقول (الشمس تغرب في المساء) فقد عبرنا عن الدلالة التمثيلية ويمكن ان نسميها المطابقة التمثيلية أي ان هناك مطابقة بين الشئ وما يدل عليه ، وكذلك اذا قلت (الارض تدور حول نفسها) فقد احدثت مطابقة مفهومية بين الكلمات والشئ المعبر عنه ، فهل تقتضي هذه المطابقة المفهومية مطابقة اتصالية؟ المقصود بالمطابقة الاتصالية استعمال الافراد للكلمات نفسها والمعاني نفسها عندما يستعملها شخصان في وقت واحد او اوقات مختلفة، أي ان المطابقة التمثيلية لا تؤدي الى مطابقة اتصالية دائما، فليس كل مطابقة بين الفكرة والكلام هي مطابقة اتصالية أي ان جميع الافراد يتفقون حول الفكرة نفسها .اننا في التعبير عن الافكار عن طريق اللغة قد لايكون التعبير دقيقا وقد يكون خاطئا لكننا نعد تعبيرنا هو تعبير اتصالي ضرورة، أي ان هناك انفصالا بين المطابقتين التمثيلية والاتصالية، وليس ضرورة ان تكون الدلالة مزدوجة في الاثنين ، وسبب هذه المزاوجة فيما نعتقد ان ماقمنا به من تعبير عن الافكار هو صحيح تماما، أي اننا نفترض كمال لغة التعبير، ولا نفكر ان هناك معجما خاصا بالكلمات كما ان هناك معجما خاصا بالاستعمال ، وعدم الاكتراث هذا يؤدي الى نقص في المعنى، فليست اللغة شفافه دائما بل هي اصلا ليست كذلك، ان هناك حائلا يقف دون نشر المعرفة هو الاعتقاد بأن المطابقتين ممكنتان لاننا نستند الى الارث التاريخي والثقافي ونعتقد ان اللغات هبات من الطبيعة، ومن ثم فنحن نتوهم ان تعبيرنا عن الافكار يحقق مطابقة اتصالية ضرورة ، قد يعيدنا قول (لوك) الى ما قالته الناقدة البريطانية (كاترين بلسي) عن اللغة وعدم دقتها في ايصال الافكار١٧.

ولكن يبقى السؤال قائما، هل المنهج الوصفي لدراسة اللغة سوف يحقق درجة مقبولة في ايصال الدلالة الدقيقة ؟ الاجابة عن هذا السؤال لما تزل غائمة وغير قطعية، ومع ذلك يمكن القول: ان المنهج الوصفي يقرب اللغة شيئا فشيئا من العلمية، أي من الاستعمال الدقيق (غير العاطفي)، لانها عند ذاك سوف تقف عند حدود معينة ، ولان الصفة لا تأخذ من المتكلم او الكاتب سوى اشارات وهي جاهزيتها للتعبير، وقدرتها على ايصال المعنى. والمقصود باللغة الواصفة ليس النعت، أي الصفة تتبع الموصوف ، فإن لم نجد موصوفا متبوعا لم نجد صفة، الامر ابعد من النعت النحوي الى النعت الدلالي

ان صحت التسمية، والنعت الدلالي موجود بوجود معنى الصفة، وهو مايشغل حيزا متسعا من الكلام المنطوق والكلام المكتوب. وان ظهرت قواعد نحوية نرددها بـــلا التفات الى قـــيمتها الحقيقـــية ، مثل القاعدة الشهيرة (الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف احوال) وهي قـــاعدة وان اشـــتهرت عند المشتغلين بالنحو غير انها قاعدة الية ميكانيكية، تفرط بالمعاني الدقيقه وتجبـــر المحـــلل اللغوي على مخالفة ذوقه وعقله انسجاما مع القاعدة، ولا نناقش قواعد النحو التي ظلت تؤسس لكينونة لغوية محنطة ، بل نناقش حقيقـــة اســـتعمالنا للغة حـــين تكون هذه اللغة واصفة فالوصف يأتي في الجمل عن طريق الصفة والموصوف والصفة المشبهه واسم الفاعل واســـم المفعول.. أي ان التحـــليل اللغوي للنص هو الباحـــث عن معنى الصفة وليس عن الصفة ذاتها ، وهذا ما اراده واضعو المقـــاييس الاسلوبـــية مثل بوزيمان وكورك واخرين، وما اجترحوه من طرائق لقـــياس الاســـلوب الادبـــي (العاطفي) مقـــارنة بالاسلوب الوصفي (العلمي).

حقا ان علم اللغة الحديث لا يفرط بالقواعد النحوية ولا بالتاريخ. كيف واللغة تاريخ ، لكنه يعيد تركيب اللغة من جديد ، يعيد ترتيب الاولويات ، ويعمل على تغيير واســـع وشـــامل في اســـاليب اللغة المنطوقة والمكتوبة انسجاما مع ضرورات التواصل الذي يعد اولى المشـــكلات الكبـــرى في العصر الراهن ، اذ ان هناك مراتب قد يعمل التواصل الى الوصول الى اعلاها وقد يهبـــط فيصبـــح نوعا من الهذيان. وبعض التواصل قـــد يكون مضرا ، عند اســـتعمال اللغة لاغراض ايديولوجية او سياســـية ، ولايمكن منح التواصل قـــوة الا باســـتعمال التاريخ ورموزه الثاوية في عمق اللاوعي الانســـــاني او استعمال اللغة التاريخية ،عند ذاك تنحو منحى تواصليا ممتازا، بسبب ايقاظ النزعات النائمة، فتستخدم اللغة في اوسع افاق شاعريتها، باستعمال الافعال بطريقة تؤدي في الاخير الى الســـيطرة الفاعلة على العقل ، عندها يكون دور اللغة دور (المخدر) قبل ان يكون دورا معرفيا ثقافيا انسانيا... وبـــهذا المعنى فان التواصل في حالاتنا العربية تحـــديدا، ليس دافعا لافتتاح افق جديد في التفكير ومحـــاورة العقـــل ، وتحقيق مستويات من الفهم الانساني ، وتغليب النزعات الانسانية بل هو احيانا يناقـــض ذلك تماما ، أي ان مستخدم اللغة يلجأ الى الرموز والاحداث التاريخية لاحداث اكبر صدمة تواصلية في ذهن المستمع والقارئ ، ومن ثم قيادته بعد ذلك الى فعل مهدم وفق مايريده مستعمل اللغة ، لذلك فأن تحقيق التطابـــق بين الدلالة التمثيلية والدلالة الاتصالية يحدث في حالات كثيرة متناقضة ، تتدرج من اقـــصى حـــالات الايجاب والفاعلية الفكرية الخلاقة الى اقصى حالات السلب والنكوص العقلي .ولكن المعهود هو كيفية تحقيق النجاح الاتصالي أي تحقيق المعنى المعتاد للاتصال واستعماله في اهداف ابستمولوجية او مدنية او حياتية ، أي ان الاتصال هدفه التغيير انطلاقا من تلك المعاني ، تبحث الدراسات الاعلامية واللغوية في هذه الخصائص اللصيقة بالاعلام والاتصال، و في السبل التي تجعل منه ضعيفا او عديم الجدوى."

ان احد العوائق الرئيسية التي تواجه التحقيق السليم لهدف اللغة الاتصالي ، يكمن في فشـــلنا بـــوصفنا

فاعلين لسانيين ، في ان ندرك بان النجاح الاتصالي يعتمد علينا ، فنحن انفسنا من يجب ان يسعى لاستعمال اللغة بطريقة ينشأ عنها الاتصال ، فالنجاح الاتصالي غير مضمون من الطبيعة او من الله، وهو ليس منحة من آدم، او من المجتمع او الخصائص المتصلة باللغة نفسها"١٨.

المقتبس السابق يشير الى افكار لوك اللغوية أي افكار عصر النهضة ومابعده "لكن العقيدة اللسانية التي يحاول نقضها لوك هي الافتراض الموروث بوجود مطابقة مزدوجة في الدلالة : مطابقة تمثيلية للافكار مع الاشياء بما هي افكار تعبر عن تلك الاشياء ، ومطابقة اخرى اتصالية للافكار معبر عنها بوساطة استعمال شخص واحد للكلمات مع تلك المعبر عنها بواسطة استعمال فرد اخر للكلمات ذاتها "١٩. أي ان لوك هنا يقاوم الدلالة الموروثة للكلمات فهي ليست هبه الهية ولم تعطها الطبيعة عفوا ، ويقترب من الرأي القائل ان اللغة استعمال فردي وجماعي وهي بذلك ليست قواعد فقط.

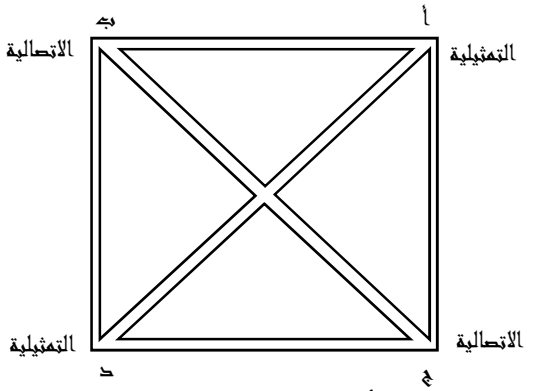

يلاحظ من المرتسم السابق مايأتي :

محور (أب) = قوة الاتصال

محور (أج) = ضعف الاتصال

محور (ب ج) = قوة الأتصال

محور (أد) = ضعف الاتصال

ان التطابق بين أ و ب وكذلك بين ج و د ، يحقق اعلى درجة من درجات الاتصال ، أي ان مايقوله أ هو عينه موجود في ذهن ب ، وهذا يعني ان مستعمل اللغة يستعملها بالطريقة التي تحدث اعلى انواع الاتصال ، أي ان هناك دراسة لذهن المتلقي او المتقبل او المستقبل ، وهذا التطابق يعيد بعض الشئ القاعدة القديمة التي تقول لكل مقام مقال ، لكننا لسنا في حضرة التفاعل الشفاهي البلاغي بل في اطار عدد غير محدود من الخطابات الشفوية والمكتوبة التي تقدم لقارئ او سامع معروف او غير معروف ، ان احداث هذا التطابق هو الذي يهيئ اعلى فرصة لمستخدم اللغة كي يتواصل مع الاخر .

ويمكن توزيع الخطابات لدينا على الشكل الاتي:

1- محور التطابق بين الدلالتين التمثيلية والتواصلية ، يتضمن انواع الخطاب الاتية : الخطاب التاريخي ، الخطاب الديني ، الخطاب العاطفي (الشعري) .

2- محور عدم التطابق بين الدلالتين التمثيلة والتواصلية ويتضمن أنواع الخطاب الاتية : الخطاب الفلسفي ، الخطاب العلمي .

ولم نضع الخطاب الاعلامي في أي من القسمين لانه يأخذ ملامحه منهما بسبب اقترابه من التاريخ والرموز الثاوية فيه . وهذا يعني ان الخطاب الاعلامي في وجهه الطبيعي الذي هدفه البناء الحضاري والثقافي مازال بعيدا عن تحقيق اهدافه ، وهذا ماينطبق على البيئة العراقية التي مازالت تعاني الكثير في اطار تقديم خطاب اعلامي يحدث نوعا مهما من انواع التغيير في المجتمع العراقي ، وهو لما يزل مرتهنا بارآء ايديولوجية وسياسية وتاريخية مما يجعله خطابا منحازا ، لاسيما في اوقات الصراع الحزبي والفئوي والطائفي. اي انه بعيد عن الخطاب المستقل الذي يطلب عادة في الاتصال، وهو قريب من استعمال اللغة لاغراض الدعاية السياسية، وهو ما أشار اليه العالم النفسي الروسي موسكوفج الذي حدد ثلاث قواعد يشخص عبرها مايطلق عليه التحويل الدلالي او التبدل الدلالي ، وهي قاعدة الانتقاء والقسر والاولوية٢٠.

اختراق اللغة وتنازع الكلمات

لاشك في اننا نعالج اللغة وننظر اليها من المواقع الادبية حيث تتحد مع الالسنية وعلم اللغة الحديث ، في محاولة لتوصيف الخروقات اللغوية ، والتي قد تؤدي الى انحراف اساسي في الفكر او في السلوك الجمعي ، وقبل ذلك لابد من الوقوف عند القضايا الاساسية التي طلع بها العصر، اذ اعتنينا باليسير منها في الصفحات السابقة ، محاولين قدر الامكان التقليل من الاختلافات بين الالسنيين ، في موضوع النظر الى دور اللغة في عالمنا المعقد والمضطرب. وربما كانت محاولة (جان جاك لوسركل) مهمة في نفي استقلال اللغة ، لكن هذه المحاولة تظل تنويعا على ما جاء به (دوسوسير) قبولا او رفضا ، غير ان اراء اخرى تظل لها قيمة نفسية واجتماعية فضلا عن قيمتها اللسانية "يرى لاكان ان اللغة ليست مجرد وعاء للافكار والمعلومات ، كما انها ليست مجرد واسطة للتواصل ، بل هو يرى ان ما يؤدي الى الفشل في التواصل ايضا يحمل مغزى مهما ، فان حالات سوء التفاهم والارتباكات والممارسات الشعرية وملامح اخرى مثل زلات اللسان ، والذهول ونسيان الاسماء ، كلها تنبثق من اللغة وخلالها ، وهذه الملامح هي التي تظهر فيها اثار عمل العقل الباطن ، فهو لذلك يرى ان العقل الباطن هو الذي يخرب التواصل ، ولا يحصل هذا مصادفة بل بحسب نظام بنيوي معين. كما يرى لاكان ان كل اشكال الخطاب لدينا ، هي بمعنى ما زلة لسان مستمرة"٢١.

لاكان هنا يتحدث عن فشل التواصل ودور العقل الباطن فيه ، ولو نقلنا ذلك الى واقع معاش مثل واقعنا ، فان العقل الباطن يتدخل في صياغة جمل اصبحت كالشعارات ، وهي محملة بشحن ايديولوجية تاريخية او دينية ، وتعمل مؤسسات لغوية وسياسية وقانونية ايضا على استثمار الكلمات والجمل في صياغات خاصة.

ويمكن اخذ عينات لغوية ، كلمات او جمل من الواقع الاعلامي العراقي ، لقياس المدى الذي تبلغه اللغة في عملية التحول الدلالي ، او الخروج عن مفهوم الاتصال الذي حددناه سابقا بانه ايجابي دائما ، ففي مثل عبارة (اتباع آل البيت) والعبارة المقابلة (اتباع المصطفى) ، المستعملتين في الصحافة السياسية والحزبية ، وقع التنازع هنا في طريقة الاستعمال للكلمات وطريقة التنازع فيها ، ولاشك في ان للعقل الباطن دورا فيها ، وهي ليست كزلة اللسان التي تحدث عنها لاكان ، ولو دققنا في العبارتين لوجدنا ان هنالك حملا دلاليا ايديولوجيا تاريخيا ودينيا ومذهبيا ، فالاتباع تقتضي وجود تابع ومتبوع ، ولايوجد احدهما الا بوجود الاخر ، ونجد تطابقا بين الكلمتين في الصيغة والصوت والمعنى ، لكن صيغة المطابقة اللغوية اوجدت حملا دلاليا مختلفا ، أي ان دلالة المعجم قد عطلت لصالح دلالة اخرى ، والذي يحدد الفرق بين التعبيرين ليس التطابق اذا ولا الاختلاف او الاتفاق الدلالي ، بل الذي يحدده واقع سياسي مرتبط باللغة ، ورغبة مصحوبة بنشاط اتصالي للاستحواذ على الكلمات في كلا التعبيرين. وعلى هذا فقط جرى تفكيك المعنى وتركيبه من جديد ، وكأننا نقترب من جاك دريدا فيلسوف التفكيك " الذي عاد الى فكرة الاختلاف في كونه هو الذي يصنع اللغة ، فالمعنى اللغوي هو دائما نتيجة اختلاف لفظة مع اخرى ، وهو ليس معنى ثابتا قائما ، بل هو دائما مؤجل بسبب انزلاق الدال تحت المدلول عليه وبسبب علاقتهما غير المستقرة ، فالمعنى عند التفكيكين لايمكن تثبيته بل هو يوجد مبعثرا على طول السلسلة الدالة ، وعندما نقرأ جملة ما فأن معناها يبقى بشكل ما معلقا او مؤجلا ، فالدال يحيلنا الى دال اخر وهكذا دواليك ، فنجد ان المعنى الذي تبدى بالبداية قد جرى تعديله مرة بعد اخرى من خلال سلسلة بعد اخرى من السلسلة الكلامية ، ويصل دريدا الى ان اللغة ليست اداة نستعملها بل هي المادة التي نحن مصنوعون منها "٢٢.

وفي العبارتين (اتباع ال البيت) و (أتباع المصطفى)، الاختلاف اساسي بين العبارتين وما كان يقصده دريدا وفلسفة التفكيك، اذ المراد تثبيت الدلالة باتجاه واحد لاغير ، أي قسرها وتحديدها. والعبارتان جاءتا من داخل اللغة ومن خارجها ودخلتا الواقع الاعلامي ، ووجدتا حيزا مهما فيه سواء كان هذا الحيز مقبولا ام غير مقبول ، وهما عبارتان تنتميان الى الاتصال بمعناه التراجعي لا بالمعنى المتداول له ، وهو احداث نوع ما من انواع التفاهم المدني السلمي بين البشر ، الفكر الصراعي كان في اللغة قبل ان يكون في أي شئ اخر ، وهو تحوير للدلالة ، ونحن الذين شكلنا هذه العبارات واوجدناها ، وقد يمضي زمن ما ننسى هذه الحقيقة ، وتصبح العبارات هي التي تشكلنا ، أي هي التي توجدنا ، ففي

لحظة من لحظات الاختلاف نصبح جميعا اسرى لعبارات اوجدتها طبيعة خاصة وفي مرحلة خاصة ، املتها مواضعات معينة . واذا كان للغة شـــئ ما من العنف كما يقـــول البـــعض ومنه العنف الصوتي والعنف الدلالي ، فان ذلك لابد ان يكون طريقا للتجاذب الاجتماعي بدلا من الاتصال المدني الخلاق .

ويمكن ان نتصور الحمل الدلالي للعبارتين السابقتين على الشكل الاتي :

1- الدلالة المعجمية - داخل اللغة - .

2- الدلالة السياقية التركيبية - داخل اللغة - .

3- الدلالة التمثيلية وهي تعبير الكلمات عن الافكار - داخل اللغة- .

4- الدلالة التواصلية أي ايجاد المعنى المشترك عند جميع المستقبلين للغة فهي داخلية ايضا .

وهناك دلالة اخرى خارج الدلالات الاربع وهي الدلالة الخارجية أي دلالة خارج اللغة ، والتي يصفها حدث ما او تصنعها احـــداث ، وتجذرها حـــالات من الصراع الايديولوجي والفكري والديني ، وهذه الدلالات من اكثرها تفلتا ، وهي تتسم بعدم الاستقرار فهي تتوسع وتتجذر في اوقـــات الصراع ، ويخف معناها في حالات اخرى ، وهي اذ تستند الى الدلالات الاربـــعه السابقـــة ، الا انها مختلفة عنها وهذه الدلالات الخارجية ليست محايدة وليست موجودة في الكلمات ولا في الجمل التي تشكلها الكلمات ، هي موجودة فيما وراء اللغة (meta language) ، ومن هنا تظهر خطورتها في مجتمع مـــا وفـــي اوقات معينة ، أي ان الدلالة داخل اللغة ، تتساوى فيها الجملتان في المعنى ، اذ ان اتباع آل البـــيت هم انفسهم اتباع المصطفى ، وان اتباع المصطفى هم انفسهم اتباع ال البيت، وتتشـــكل الدلالة الداخلية من وحدة المعنى، ومن تطابق الدلالة التمثيلية مع الدلالة الاتصالية ، اما الفصل بين الجملتين يكون في عدم التطابـــق الدلالي ، وهو يأتي من الايديولوجيا ولا يأتي من اللغة ، وهذا لا يعني ان اللغة محـــايدة وان الكلمات بريئة ، لكنه يعني ان الافراد هم الذين يضيفون دلالات جديدة ، ويتنافسون في الســـيطرة على الكلمات والتسابق في الحصول عليها واستثمارها وتوظيفها "وانه لشـــئ واضح ان هناك عنفا سياســـيا تاريخيا ، يتم ايقاعه ليس فقط بواســـطة الكلمات وانما في الكلمات ايضا ، فنرى احـــد الخصمين مثلا يناضل لكي يستولي على كلمات خصمه وحـــرمانه منها ، وهكذا يكون اختيار الشـــعارات المناسبـــة والاستعارات المناسبة شيئا حيويا"٢٣.

يحدث هذا في ايام الاضطراب العام ، كما حدث في فرنسا ايام الحـــرب العالمية الثانية ، اذ ان القارئ المعاصر للمنشورات العمالية السرية التي كان ينشرها الحزب الشيوعي الفرنســـي (....) قـــد يشعر بالصدمة للروح التعصبية الوطنية الضيقة التي تظهر في تلك الكتابات٢٤.

ان الجمل ذات الشحن الدلالي الايديولوجي تلتقي مع الكلمات والجمل ذات المنحى نفسه ، وهي تدخل في اطار الاستحواذ على الكلمات واعطائها اكبـــر ما يمكن من دلالات خارجية ، بـــالمعنى الذي ذكرناه ، فضلا عن معناها الداخلي. وقد ينظر البـــلاغيون الى هذه العبـــارات من زاوية (التورية) أي

الاخفاء ، من ورى الشئ أي اخفاه ، أي ان الظاهر المحسوس يؤدي الى باطن محسوس ايضا ، في مثل الجملتين الانفتين اللتين جرى عنهما الحوار ، وفي مثل جمل اخرى وكلمات مثل: مثلث الموت ، المثلث السني ، الميليشيات ، الجماعات المسلحة، المكون والمكونات، اي استعمال اللغة خارج الاطار المحدد لها ، وقد انغمس الاعلام في اللعبة الخارجية أي لعبة الاخفاء او التورية ، غير ان الثابت ان الكلمات والعبارات السابقة قد اعلنت نوعا ما من انواع الاستبداد ، الذي فرض اداته المفهومية في لغة الصحافة ولغة الاعلام بشكل عام ، وهنا فان اللغة هي التي تشكل الاعلام وهي التي تصنعه ، تماما كما شكلت الافراد وصنعت اقدارهم ، فاذا كان الانسان كائنا لغويا فان الاعلام كينونة لغوية ايضا ، وقد استسلمت هذه الكينونة في الخطاب الاعلامي. ومن هنا فان هناك خللا فاضحا في من يشكل من وفي من يتبع من ، ولولا خلخلة اللغة الاعلامية وضعفها لما دخلت هذه الاستعمالات في نسيجها المخرب اصلا ، وان تدني المستوى الثقافي بشكل عام وانتشار الامية الثقافية سمح لهذا التجول الفاضح في مسالك اللغة وطرقها.

ونقف عند جملة ترددت كثيرا في الاعلام وهي (المناطق المتنازع عليها) ، وقد وجدت هذه الجملة في الدستور ، أي هي جزء من المؤسسة ، وحققت اعلى تردد في الكتابات الاعلامية ، يظهر ذلك من اية عينة عشوائية تؤخذ من الكتابات الصحفية والاذاعية ، لانها ترتبط بقضية اساسية من قضايا العراق المعاصر ، وقد دخلت لغة الاعلام من باب واسع ، بسبب تعامل الاعلام اليومي ، ولم يدرك صانع الخبر والتقرير خطورة هذه الجملة ، او حتى مدى اهميتها الايديولوجية . ان تكرارها المتواصل جعل منها قضية حقيقية ، فهناك مناطق هي محل نزاع وتنازع ، وان حصل تطابق بين الدلالة التمثيلية والدلالة الاتصالية في ذهن كاتب الدستور او واضعه ، فان هذا التطابق ظل وحيد الجانب في ذهن متلقي الرسالة ، او الواسطة الاعلامية وعمل الاعلام عن طريق الترديد والتكرار على ايجاد هذا النوع من التطابق بين الدلالاتين .

ان تفكيك العبارة السابقة يقتضي النظر الى الالف واللام ، وهما لاما التعريف والتخصيص ، أي ان المناطق قد حددت سلفا وعرفت ، فلا مجال لتحديدها مجددا ، وقال: مناطق ولم يقل اراضي ، للاشارة الى انها مليئة بالسكان ، وان ساكني هذه المناطق يقعون بأرادتهم داخل دائرة الصراع ، اما لفظ (المتنازع) فهو اشتقاق من الفعل (نزع) ، "ونزع الشئ من مكانه أي قلعه ، اما التنازع في اللغة فهو التخاصم " .٢٥ . ومن الفعل والمصدر تتحدد الدلالة ، او الانحراف في الدلالة ، اذ المقصود ان تعتاد الذاكرة الجمعية على مثل هذا التعبير ، كي يكتسب قبولا خاصا عن طريق هذه الجملة الايديولوجية والقومية ، وقد تكون هذه الجملة مقدمة لدلالات متفرقة وايحاءات عديدة ليس من المناسب ذكرها لانها مفهومة سلفا .

واذا كان التفكيك عند البعض " هو التمزيق الدقيق لقوى الدلالة في النص "٢٦. فإن الجملة

لاينطبــق عليها ذلك التحــديد لانها ليســت نصا ، ومع ذلك نلاحــظ ان هناك صراعا بــين الكلمتين الاساســيتين المكونتين لهذه الجملة : بــين التعريف والتنكير ، أي مناطق والمناطق ، وبــين المناطق والاراضي . وكذلك تقابل بين التنازع بمعنى التخاصم وثنائية الحرب والســلم ، وتلك الثنائيات تفيد ان المعنى في الجملة السابقة فرضته المؤسسة الدستورية واحدثت به دلالة خاصة ، قد حسم معناها سلفا ، خارج العبارات التي صيغت بها ، أي ان التركيز في المعنى جاء من خارج اللغة ، وكانت لغة الاعلام طيعة لمثل هذا الاستعمال وهي كذلك في كثير من الاحوال، وســوف تكون اللغة الادبــية اكثر مناعة واكثر حذرا، فاللغة الادبــية ليســت تابــعة لمؤسســة ما، اما لغة الاعلام فهي لما تزل تدور في فلك المؤسســات، وهذا اول ضعف يوجه اليها ، فمن المفترض انها تحــمل مواضعات اتصالية هدفها الوصول الى درجة عالية من البناء الحضاري المدني والثقافي .

خاتمة:

لاشك في ان للغة اثرها البالغ في تطور المجتمعات، ولكن هل تصلح اللغة مقياسا لهذا التطور؟ واذا كان هذا السؤال مشروعا وحيويا، فان دراستنا ارادت ان تظهر اوجها مختلفة لهذا الاثر، ووقــفت عند نقطة مهمة، وهي علاقة اللغة بالأيديولوجيا والمدى الذي تشكله هذه العلاقة، لقد خضعت اللغة في حياتنا العربية المعاصرة للتاريخ، وهي حالة قد تبدو طبيعية في مثل حــياتنا الفكرية، لكن الانفتاح على التاريخ، هو انفتاح على الايديولوجيا، ومن هذا المنطلق فقدت اللغة استقلالها، وتبع ذلك فقدان الخطاب الاعلامي استقلاله ايضا. ان عدم الاستقلال، كان الاعلام مظهرا واضحا وفاضحا له.

ان الايديولوجيا المستندة الى التاريخ، لايمكن التنبؤ بدقة عما تحــدثه من اثار، قــد تكون عكسية ومدمرة وقد تكون غير ذلك، غير ان الذي بدا لنا عن طريق هذه الدراســة ان الذي لمســناه طوال السنوات الماضية، ان اللغة اسهمت في الانقســام الاجتماعي والديني والعرقــي، واصبحــت عنوانا واداة لهذا الانقسام، وهي بسبب علاقتها القوية بالايديولوجيا، استعملت من قبــل الجهات او الجماعات المتنازعة لتكون اداة من ادوات الصراع، بــل هي تتقــدم هذه الادوات، وحــــين تكون المجتمعات في حالة ضعف فكري وتخلل قيمي، فان الايديولوجيا تتقدم بقوة، لتهز البــنيات العاطفية الثاوية في الوجدان، او في الجدار النفســي العميق للشــــعوب والمجتمعات. وكلما تقــــدم الوعي الاجتماعي والثقافي والحضاري ضعف الارتباط بين الاثنين. ان الارتباط العميق بين الاثنين قد يعزز ظهور مقياس يمكن الاطمئنان اليه عن مدى تقدم مجتمعاتنا او مدى تخلفها.

وحين اشرنا الى التقدم في الدراســات الوصفية في اللغة، وانتشــارها في مقابــل الدراســات التاريخية، ظهر ان هناك دافعا حمل الدراسات الوصفية من الخلف، وجعلها تقف في مقدمة الدراســات اللغوية، والمعروف ان العالم قد تغيرت طرائق التعبير فيه، منذ الثورة اللغوية بداية القرن الماضي، في

مسار يبدو متساوقا مع الثورة العلمية الهائلة، واذ ينحو التطور العالمي منحـــى جديدا، عن طريق ثورة الاتصال، فلا بد لنا من تفحص لغتنا، وما تفرزه، ولا سيما العلاقة الوثيقة بالاعلام. وقــد اخذنا نتلمس الخطر في استغلال اللغة والاستحـــواذ على المفردات والجمل، لاغراض لا تنســـجم والتقــدم نحـــو المستقبل، فقد لا تكون اداة مساعدة في التغيير الذي نطلبه لبلداننا ومجتمعاتنا.

الهوامش

1- جون.إي.جوزيف وتايلوت.جي.تيلر ، الايديولوجيا واللغة ، ترجمة وتعليق باقر جاسم محمد ، دار الشؤون الثقـــافية ، ط١ ، ٢٠٠٨ ص٥ .
2- المصدر نفسه ص٣٨١ .
3- د.عبده الراجحي ، النحو العربي والدرس الحديث ، دار النهضة العربية - بيروت ، د.ط ، ١٩٨٦ ص١١٤ .
4- جون.إي.جوزيف ، مصدر سابق ص٦ .
5- د.عبده الراجحي ، سابق ص٣٠ .
6- المصدر نفسه ، ص٣١ .
7- د. محمود خليل ومجموعة من المؤلفين ، انتاج اللغة الاعلامية في النصوص الاعلامية ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص١٧.
8- ابراهيم محمود ، الفتنه المقدسة ، دار رياض الريس للكتب والنشر ، ط١ ، ١٩٩٩ ، ص٢٤٤ .
9- د. محمد درويش ، الاسلوب بين التراث والمعاصرة ، القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص٧٦ .
10- ابراهيم محمود ، سابق ، ص٢٢٦ .
11- المصدر نفسه ، ص٢٥٦ .
12- جون.إي.جوزيف ، سابق ، ص١٧ .
13- المصدر نفسه ، ص١٧ .
14- المصدر نفسه ، ص٢٣ .
15- المصدر نفسه ، ص٢٤ .
16- المصدر نفسه ، ص٢٤ .
17- كاترين بلسي ، الممارسة النقدية ، ترجمة سعيد الغانمي ، دار المدى ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ص١٣ .
18- جون.إي.جوزيف ، سابق ص٢٤ .
19- المصدر نفسه ، ص٢٤ .
20- ينظر فريال مهنا ، تقنيات الاقناع في الاعلام الجماهيري ، دمشق ، دار طلاس ١٩٨٩ ، ص١٨٤ .
21- جان جاك لوسركيل ، عنف اللغة ، ترجمة محمد بدوي ، المنظمة العربية للترجمة،بيروت، ، ط٢ ، ص١٤ .
22- المصدر نفسه ، ص١٥ .
23- المصدر نفسه ، ص٣٦٧ .
24- المصدر نفسه ، ص٣٦٨ .
25- الرازي ، مختار الصحاح ، مادة نزع .
26- ديفيد بشبندر ، نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعر ، ترجمة عبد المقصود عبـــد الكريم ، الالف كتاب الثاني ٢٠٦ ، ص٧٦ .